ثقافةُ التَّعايُش والسَّلامِ

أمل عبد اللهَّ القُبيسي(*)

بسمِ اللهِّ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

فضيلةَ الإمام الأكبر .. الدكتور أحمد الطيب .. شيخَ الأزهرِ الشريفِ .. رئيسَ مجلسِ حكماء المسلمين.

قداسةَ البابا تواضروس الثاني .. بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية.

أصحابَ الفخامة والفضيلة والغبطة والسماحة.

أصحابَ المعالي والسعادة.

السيداتُ والسادةُ الحضورُ.

السلامُ عليكم ورحمةُ اللهَّ وبركاتُه.

السلامُ .. تحيةُ الإسلام الخالدةُ.

السلامُ .. دعوةُ الأديان السماوية.

السلامُ .. قيمةٌ إنسانيةٌ غاليةٌ، راح ضحية غيابها الكثيرُ من الأبرياء من كافة الأديان على حدٍّ سواءٍ؛ جرَّاءَ الحروب والصراعات، أو في اعتداءاتٍ إجراميةٍ آثمةٍ.

السلام .. مطلبٌ حيويٌّ للعالَمِ أجمعَ .. وأمرٌ حتميٌّ للعالَمِ أجمعَ، والبديلُ هو الصراعُ والاحترابُ بين الدول، وداخلَها أيضًا.

والسلامُ لن يتحقق إلا بتحمُّلِنا مسئوليتَنا تجاه اختلافاتنا الإنسانية.

مسئوليتُنا أن نسعىٰ للبحث عن المشترك بيننا، وأن نَقبلَ المختلف بيننا.

والسلامُ لابد وأن يتحقق بالحوار الذي هو السبيلُ لبناء المشتركات، وتكريسِ التفاهم، وأسسِ التعايش؛ فالتعايشُ ثراءٌ .. وتنوعٌ .. وتفاعلٌ حضاريٌّ بنَّاءٌ.

أبدأ كلمتي اليوم بالترحُّمِ علىٰ أبناء مصر الذين سقطوا ضحايا لعمليةٍ جبانةٍ استهدفت مصر قبل أن تستهدفَ مسيحيِّيها؛ فلم يسقط في «أَحَدِ الشعانين» المسيحيُّون فقط، بل سقط فيه أيضًا رجالُ الأمن والشرطة المسلمون ممن جاءوا لِيَحمُوا إخوانهم المصريين في يوم عيدهم، نسأل اللهَّ لهم الرحمة، ولذويهم الصبر والسلوان، كما نسأل اللهَّ لنا الإيمان بأننا شعبٌ واحدٌ، مصيرُه واحدٌ، وعدوُّه واحدٌ.

السيداتُ والسادةُ.

إنه لمن دواعي سروري أن أشاركَ في هذا المؤتمر العالمي في حضور رموزٍ وقاماتٍ دينيةٍ وسياسيةٍ وفكريةٍ وثقافيةٍ، لها جهودٌ وأدوارٌ واضحةٌ في السعي نحوَ السلام، وهذه الرؤية الحضارية لا يُمكِنُ أن تتجسد بشكلٍ أكثرَ وضوحًا من تجمُّعِنا هنا اليومَ.

فاسمحوا لي أن أُعبِّرَ عن خالص الشكر والتقدير والامتنان لفضيلةِ الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر علىٰ دعوته الكريمةِ لي؛ للمشاركة في هذا الحدث المحوريِّ الهامِّ.

ومن المؤشرات الإيجابية أن يُناقَش موضوعُ السلام بتنظيمٍ من الأزهر الشريف، الذي كان -ولا يزال- صرحًا عريقًا للاعتدال، وقلعةً شامخةً للدفاع عن التعايش والتسامح، على أرضِ مصر الشقيقة، أرضِ السلام، مهدِ الحضارة، وملتقى الأديان والثقافات.

لم يَعُدِ السلامُ مفهومًا مرتبطًا بالعَلاقات بين الدول، بل بات مطلوبًا -وبإلحاحٍ- داخلَ كل دولةٍ على حدةٍ، لكونه ركيزةً جوهريةً للاستقرار والعيش المشترك بين المكوِّنات الدينية والمذهبية والطائفية والعرقية للدول، باعتبار أن الاحترامَ المتبادَلَ وقبول الآخر ثوابتُ تنطبق على الأفراد كما تنطبق على الدول.

السيداتُ والسادةُ.

إن التنمية وتلبية تطلعات الشعوب تتطلب ثقافةً راسخةً للتعايش، وهو ما يوفر بدوره بيئةً مجتمعيةً ملائمةً للاستقرار والعمل والإبداع، ولدينا في دولة الإمارات العربية المتحدة تَجرِبةٌ راسخةٌ متجذِّرةٌ في التعايش، فهو إرثنا الوطني الذي نعتزُّ به، وقد أسست قيادتُنا الرشيدة لنموذجٍ يُحتذى به في التعايش والتسامح والانفتاح وقبول الآخر، واحترام التنوع ونبذ التعصب بين أكثرَ من مائتي جنسيةٍ يعيشون على أرض الإمارات جنبًا إلى جنبٍ مع مُواطني الدولة، ويساهمون جميعًا في تطوُّرِها ونهضتِها.

ولم يكن ذلك لِيَتحقَّقَ على أرض الإمارات من دون تخطيطٍ وبنيةٍ تشريعيةٍ وقانونيةٍ وآلياتٍ منظمةٍ، مِثلِ قانون مكافحة التمييز والكراهية، وقد تمَّ في

التشكيل الوزاري الحالي استحداثُ وزارتين لحوكمةِ القيمِ؛ لتكونَ الأولى من نوعها في العمل الحكوميِّ عالميًّا وهما: وزارة التسامح، ووزارة السعادةِ.

نعم، وزارة للسعادة تَهدُفُ إلى خلق أسلوب حياةٍ إيجابيةٍ، وتقديمِ أعلى جودةٍ في الخدمات الحكومية، والتي بدورها تُساهم في إيجاد مواطن إيجابي منتج راضٍ متفائل، وبالتالي سعيد.

كما تستضيف الإماراتُ وتَدعَمُ عددًا من المبادراتِ العالميةِ، والمنظمات الدولية، والمؤسسات الرائدة في تعزيز قِيَمِ التسامح ونبذ العنف ومكافحة التطرّف، مثل «مركز هداية الدولي للتميز لمكافحة التطرُّف العنيف»، و«مركز صواب»، بالإضافة إلى «منتدى تعزيز السلم في المجتمعات المسلمة»، و«مجلس حكماء المسلمين»، انطلاقًا من إيمانٍ لا يتزعزعُ بحتميةِ تعايُشِ الأديان والحضارات والثقافات، وقد لعب مجلس حكماء المسلمين -الذي يترأَّسُه فضيلة الإمام الأكبر الشيخ الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر الشريف- منذ تأسيسه دورًا حيويًّا في تقديم الصورة الحقيقية للإسلام في مُختلِفِ أرجاء العالَمِ، وتعزيز السلام والتسامح والعيش المشترك، والتقارب بين الأديان.

الحضورُ الكريمُ.

إن التطرفَ والغلوَّ قد أساءا للإسلام إساءةً كبيرةً، ودفع ضريبتَه المسلمون في مناطقَ شتَّى من العالَمِ، وفي هذا الإطار، نؤكد على ضرورةِ الفصل تمامًا بين الإسلام والإرهاب، وأن يكون الفصلُ واضحًا لا جدالَ فيه، دينيًّا وإعلاميًّا

وسياسيًّا وفكريًّا، فتخليصُ صورة الإسلام -بل الأديانِ جميعِها- من بَراثنِ الإرهابيين أولويةٌ قُصوَى لتحقيق التعايش الحقيقيِّ.

وأودُّ التأكيدَ هنا على أنه ليس هناك إسلامٌ متطرفٌ وإسلامٌ معتدلٌ، فالإسلامُ دينُ سلامٍ .. والإسلام بريءٌ من التطرف والتشدد، وخلطُ الأوراق خطأٌ فادحٌ يخدُمُ أهداف المتشددين.

إن الإرهاب يحاولُ أن يستثيرَ صراع الهُوِيَّاتِ بين أفراد المجتمع، ليُفتِّتَ المجتمع، ويُفكِّكَ الدولة التي تجمع كل عناصره، والإرهاب يحاول أن يَلبَسَ بشكلٍ فاضحٍ لباسَ الدين، محاولًا استثارةَ صراعات الهُوِيَّةِ الدينيةِ، وإن بوادرَ ذلك الصراعِ بدأت تظهرُ في العديد من الدولِ، وبدأت تتحول من خطابٍ شعبويٍّ، إلى تكتلاتٍ سياسيةٍ، وحتى سياساتٍ حكوميةٍ.

أصحابَ الفخامةِ والفضيلةِ والغبطةِ والسماحةِ.

إن الشعوب تنظرُ إليكم كقياداتٍ دينيةٍ لتكونوا «بوصلة» لقِيَمِها والقيمِ التي تحكم مجتمعاتِها على اختلاف مَشاربِها، وتلك المسئولية تفرض عليكم أن تكون مواقفُكم الإنسانيةُ والسياسيةُ والدينيةُ درسًا في التوافق المجتمعيِّ.

علينا أن نبذل مزيدًا من الجهد.. وعلينًا أن نمتلك تصميمًا قويًّا على تحقيق هدف السلام والتعايشِ؛ فالتغييرُ يأتي بالإصرار والمثابرةِ .. ومن لا يستطيعُ تغيير الواقع أو على الأقل يُحاول تغييره ويسعى إلى ذلك جِدِّيًّا لا يجب أن يَحلُمَ بعالمٍ أفضلَ له وللآخرينَ.

علينا أيضًا أن نعمل على دراسة مُعوِّقاتِ السلامِ .. بجدية وعناية؛ فالعالم بحاجة إلى حلولٍ ابتكاريةٍ وواقعيةٍ وجادَّةٍ لمعالجة أزماتِه وتحدياتِه ... وعلينا أن نتجاوزَ تجارِبَ الماضي وتعقيداتِه، وألا نقعَ أَسرىٰ للإحباط واليأسِ، فلم يَعُد من السهل أن تعيشَ دولة أو شعب أو أصحاب ديانة ما بمُفردِهم، بعد أن تجاوزت البشريةُ فكرة القرية الكونية الصغيرة، لتصبح كِيانًا مجهريًّا، والتقنيات تُذيبُ الفوارق بوتيرة متسارعةٍ، ومن الصعب على دولة أن تُواجهَ أيَّ تحدٍّ بقدراتِها الذاتية من دون تكاتف وتعاون الدول الأُخرىٰ.

أخواتي وإخواني.

من واقع عملي البرلمانيِّ .. أُدرِكُ أن هناك مسئوليةً كبيرةً تقع على كاهل المؤسسات التشريعية والرقابيةِ؛ لتأسيس وتطوير بِنًى تشريعيةٍ وقانونيةٍ تَدعَمُ التعايشَ والتسامحَ .. و تواكب العصرَ.. وتضمن تكريس ثقافة السلامِ ... ومعالجة التحدياتِ .. والتهديدات التي تَطالُ هذه الثقافةِ، مثلُ التطرف والتشدد والتحريض ونشر ثقافة الكراهيةِ .. سواءٌ عبرَ استغلال الأدوات والوسائل التقليديةِ، أو عبرَ وسائل التواصل الاجتماعيِّ، التي باتت تلعبُ أدوارًا مؤثرةً في المجتمعات كافَّةً، ولا يجب التهوينُ من التأثيرات المترتبة على محتواها، باعتبارها مِنصَّةَ جذبٍ عميقةَ التأثير في نفوس أفراد المجتمعِ، وبخاصَّةٍ شريحة الشبابِ.

لذا، فإننا نحرصُ في عملنا البرلماني على تكريس ثقافة التسامح والتعايش محليًّا ودوليًّا، وقد ترجمنا ذلك من خلال تعاوننا مع الحكومةِ في إصدار قانون مكافحة

التمييز والكراهيةِ، الذي يُعَدُّ نموذجًا يُحتذىٰ به في تكريس قواعد العيش المشتركِ، فضلًا عن إسهامنا في «إعلان أبو ظبي» الصادر عن «القمة العالمية لرئيسات البرلمانات» التي عُقِدَت في عاصمة الإمارات أبو ظبي، ديسمبر الماضي، والذي حثَّ علىٰ إصدار إعلان برلماني دولي للتسامح بِناءً علىٰ مقترحٍ إماراتيٍّ، وقد صادقت علىٰ ذلك برلماناتُ العالمِ في اجتماعات الاتحاد البرلماني الدوليِّ، كما شدد هذا الإعلانُ علىٰ ضرورة تعزيز الحوار الدوليِّ من أجل السلامِ.

الحضورُ الكريمُ.

ثقافة التعايش والسلام لها متطلباتٌ وأسسٌ وركائزُ، من أهمها تسويةُ الصراعاتِ، وإنهاء معاناة الشعوب التي تتعرض للظلم والاحتلالِ، وفي مقدمتها الشعبُ الفلسطينيُّ، وفرضُ حظر دولي علىٰ تمويل تنظيمات الإرهابِ، ومواصلةُ العمل لتجفيف منابعِه، وتجريمُ كل أشكال تمويل الإرهاب والحروب بالوكالةِ.

وعلىٰ المستوياتِ الوطنيةِ، يجب منحُ أولوية مطلقة لتطوير الثقافة والتعليمِ، الذي يرتبط بعَلاقةٍ مباشرةٍ بالشباب والأجيال المُقبِلةِ، ومن ثَمَّ بفُرَصِ العمل والآفاق المستقبلية للمجتمعاتِ، فضلًا عن أن تطوير التعليم هو المصلُ المضادُّ للجهل والتخلف والتراجع الثقافي والحضاريِّ، وتحصينٌ للمستقبلِ؛ فالتعليم استثمار اجتماعيٌّ واقتصاديٌّ وثقافي في آنٍ واحدٍ.

وأُشيرُ هنا إلى ما ورد في الميثاق التأسيسيِّ لمنظمة «اليونسكو» الذي قال في ديباجته: «لما كانت الحروبُ تُولَدُ في عقول البشرِ، ففي عقولهم يجب أن تُبنى حصونُ السلامِ».

وفي رحلة بحثِنا عن السلام والتعايش وسبل تحقُّقِهما، لابد من التأكيد على أهميةِ تكريس قواعد المواطنة وتحصينِها، وتمكينِ المجتمع من خلال تمكينِ المرأة والشبابِ، فتلك قضايا لم تَعُد قابلةً للنقاش والجدالِ، فالمرأة صانعةُ سلامٍ حقيقيٍّ في مجتمعاتِها، والشباب هم قوة تغييرٍ، سواءٌ في الاتجاه الإيجابي أو السلبيِّ، وهم دِعامةُ الحاضر وكلُّ المستقبلِ، وهم أيضًا وقودُ تنظيمات التطرف والإرهابِ، وذخيرتُها، والأكسجين الذي يجب حرمانُها منه نهائيًّا.

علينا أيضًا ألا نستسلم لخطاب التطرف والغلوِّ، وألا نتوقف عن التصدي له بشتَّى السبلِ؛ فهيمنةُ هذا الخطاب تَعني الانزلاقَ إلى الصدامِ، والصراع بين الأديان والحضاراتِ.

وفي هذا الإطار نُثمِّنُ غاليًا خطوات وجهود فضيلة شيخ الأزهر والبابا فرانسيس بابا الفاتيكان، على صعيد الحوار بين الأديانِ، باعتبار ذلك مُقدِّمةً حتميةً للسلامِ، وتَقارُبِ الشعوبِ، وتلاقي الحضاراتِ، والتصدي لدعاة الاحتراب والصراع الديني والثقافيِّ.

كما نُثمِّنُ أيضًا الدورَ الوطني التاريخي للبابا تواضروس الثاني، بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسيةِ، وانتصارَه للوطنِ، والاصطفافَ الوطنيَّ، وتفويتَ الفُرَصِ على مُثيري الفتن ومُدبِّري المؤامراتِ.

الأخواتُ والإخوةُ.

دائما نشعر بحاجة العالم للسلامِ، وتلمستُها شخصيًّا عن قُربٍ:

في نظرة الضياع والحَيرةِ من مستقبل مجهول أيقنتها في عيون طفلة بريئة ولدت في إحدى مخيمات اللاجئين وأنا أُقبِّلُ جبينها.

في نظرة الحزن والأَسى التي اختلطت بالتسامح لدى شابة بلجيكية احتضنتُها وهي تبكي خطيبَها الذي كان أحد ضحايا تفجيرات بروكسل الإرهابية في محطة مترو ملبيك .

في نظرة خوف عند الصياح ... بـ: اللهَّ أكبر .

من نظرة الغضب التي كانت تَحمِلُها صحفية أوروبية تجاه المسلمين والإسلام، الناتجةِ عن جهلٍ واضحٍ باستشهادها بآيات تَحُثُّ المسلمين على الجهاد، وتربط بأن كل ما يَنتُجُ من عملياتٍ إرهابيةٍ الدينُ هو من يُحرِّضُ عليه.

أصحابَ الفخامة والفضيلة و الغبطة والسماحة.

لقد اجتمعتم اليومَ جميعًا هنا برسالةٍ واحدةٍ، رسالةِ السلامِ، وباسمِ السلام أدعوكم جميعًا؛ من رجال دين.. وحكوماتٍ ... ومنظماتٍ دوليةٍ.. وبرلمانين

ممثلين لشعوبنا.. لمواجهة مسئوليةٍ كبيرةٍ تجاهَ الشعوب والأجيال المُقبِلةِ؛ وهي أن نعمل متَّحدين؛ لصياغة مستقبل السلامِ؛ ولنقاوم معًا:

الضياعَ .. بالأمنِ.

الخوفَ .. بالرحمةِ.

الجهلَ .. بالتسامحِ.

الحزنَ والأسى .. بالسعادةِ.

الإحباط واليأس .. بالأملِ.

وهذا هو استثمارُنا الحقيقيُّ؛ لِيَنعمَ أبناؤنا جميعًا بالعيش بسلامٍ.

السلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ وبركاتُه.